

الباب الثالث والعشرون

في ذكر المروءة، وحسن الفتوة

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١).

وقال رسول الله ﷺ: «تجافوا عن ذي المروءة ما لم يقع حدٌّ، وإذا أتاكم كريمٌ قومٌ فأكرموه».

وقال أمير المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ: من عَلِمَ من أخيه مروءةً جميلةً، فلا يسمعَنَّ فيه الأقاويل.

وقيل لشريح: أي الرجال أعجبُ إليك؟ قال: الشريف، العفيف، العاقل.

وقال عليُّ بنُ سليم: كان قيسُ بنُ سعد يقول: اللهم ارزقني حمداً ومجداً، فإنه لا حمد إلا بفعال، ولا مجد إلا بمال، ولا يسعني القليل، ولا سعة إلا بالكثير.

وقال أبو عبد الله الحسين بن علي: ما وقع غبار مركبي على أحد إلا وجب حقه علي.

وكان المهلبُ يجمع بينه فيعظهم، ويقول لهم: يا بني قومكم قدّموهم فإن لقومكم عليكم حقاً، إنهم سؤدوكم وفضلوكم ووطئوا أعقابكم، وبدلوا

(1) البقرة: الآية (274).

أنفسهم دونكم، وبلغتم حاجتكم في الناس بهم، فلمهم بذلكم حق عليكم،
فافتحوا لهم أبوابكم، وإن شتموكم فاحتملوا لهم ذلك، فإنكم لن تزالوا في
علو من أمركم ما دام ذلك الرأي فيكم.

وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة، فقال: الحلم عند الغضب، والعفو
عند القدرة.

وقال أيضاً: المروءة الحزم وهو تبع للعقل، ولا تصلح المروءة إلا بالتواضع
فإن: حياة المروءة الصدق، وحياة الروح العفاف، وحياة الحلم الأناة.

وذكر أن رجلاً أتى ابن هبيرة، وكان له صديقاً في الدهر، فجاءه
متعرضاً لمعروفه، فلم يذكر له شيئاً من حاجته، وقد كان أكرم مجلسه
وأدناه منه، فقال ابن هبيرة: ألا تذكر حاجتك؟ فقال الرجل: كفى طلباً
لحاجة كل امرئ مداومة الزيارة والسلام، فقال ابن هبيرة: صدقت
فأعطاه وكساه.

وقيل لقس بن ساعدة: ما أفضل العلم؟ قال: وقوف المرء عند علمه،
قيل فما أفضل المال؟ قال: ما قضى فيه الحقوق، قيل: فما أفضل المروءة؟
قال: استبقاء المرء ماء وجهه.

وقال الأصمعي عن بعض الحكماء، قال: ليست الفتوة الفسق والفجور،
ولا شرب الخمر، إنما الفتوة المروءة، طعام موصول، ولسان معسول،
ونائل مبدول، وعفاف معروف، وأذى مكفوف.

وقال الشاعر:

وليس فتى الفتیان من راح واغتدى

لشرب صبوح أو لشرب غبوق

ولكن فتى الفتیان من راح واغتدى

لضُرِّ عَدُوٍّ أَوْ لِنَفْعِ صَدِيقِ

وقال فيلسوف الهند: ذو المروءة مكرم، وإن لم يكن معه مال، كالأسد يهاب وإن كان مربوطاً، ومن لم يكن له مروءة فيهان وإن كان موسراً، كالكلب يهان وإن طوق وحلي.

وقيل لأعرابي: ما القرى؟ قال: نار يعلو شرفها وخيمة يوطأ كنفها.

وقيل لآخر: ممن الرجل، فقال: من الذين لا تخفى نارهم ولا يُجفى جارهم.

وقالت الخنساء: تذكر أخاها وكرمه وجوده:

لَهُ نَارٌ تُشَبُّ بِكُلِّ وادٍ

إِذَ النَّيْرَانُ أَلْبَسَتِ الْقَنَاةَا

وَلَيْسَ بِأَكْثَرِ الثَّقَلِينَ مَا لَأَ

وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعَا

الحكاية

سُئِلَ حَاتِمُ فَقِيلَ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ فِي الْعَرَبِ أَكْرَمَ مِنْكَ أَحَدًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ رَأَيْتُ صَبِيًّا يَتِيمًا، أَكْرَمَ مِنِّي، قِيلَ لَهُ: كَيْفًا؟ قَالَ: إِنِّي نَزَلْتُ ضَيْفًا فِي بَيْتٍ، لَا أَدْرِي لِمَنْ هُوَ، فَأَحْضَرُ لِي ضَاغًا حَنِيدًا فَاسْتَطْبْتُ مَخَّ عَظْمِ السَّاقِ مِنْهَا، فَقُلْتُ: مَا الَّذِي هَذَا؟ فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ زَمَانٍ مَضَى مِنَ اللَّيْلِ، رَأَيْتُ قَدْ حُمِلَ لِي جَفْنَةٌ كَبِيرَةٌ تَكْفِي جَمَاعَةً كَثِيرَةً مَمْلُوءَةٌ مِنَ الْمَخِّ، الَّذِي تَلَذَّذْتُ بِأَكْلِهِ، فَتَعَجَّبْتُ مِنْ هِمَّةِ صَاحِبِ الْمَنْزِلِ، إِذْ لَمْ أَرَهُ، فَلَمَّا أَضَاءَ الْفَجْرُ سَأَلْتُ

عن ربّ المنزل، من هو؟ فقيل لي: هو صبيّ لم يبلغ الحُلُم، فأتيته فرحّب بي، ووضع رأسه على قدمي، واعتذر غاية العذر إلي، وقال: إنني لم أوثر الوقوف بين يديك إلا تعظيماً وإجلالاً لقدرك، وتشريفاً لي، لئلا تمتنع من أكل الطعام في منزلي، إذا رأيتني، لحقارتي ويئمي وصبوتي، فاحتلت عليك ببعادي عن خدمتك، قال له: ما حملك على هذا الإسراف الذي صنعت؟ فقال: لا سرفَ فيمن أراد الشرفَ بمثلك، فإن الذي جدّت به أجدُّ مثله، ولا أجدُّ مثلك، فقال حاتم لقد تعجبتُ من معرفته، وحسن كلامه، أكثر مما تعجبت من جوده، وبذل طعامه، فهو أكرمُ مني؛ إذ جاد لي بجميع ما يملك، وأنا إنما أجودُ ببعض ما أملك، والجدود بكل شيء أعظم من الجود ببعضه.

